

## ذو النون المصري

كتاب ألفه الدكتور عبدالحليم محمود شيخ الجامع الأزهر الأسبق أما ذو النون فهو العالم العابد العارف بالله أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري، إنه علامة على مسار التاريخ المصري المعرق في القدم. كان إماما، وكان علامة، وكان كرامة، وكان موقفا.

والرجل هو الموقف. الموقف عندي هو المقياس. إنه أكبر من دلالة في ميزان التاريخ. الموقف أعلى من المناصب.. والرتب.. والشهادات نفسها..

ذو النون عالم محدث.. صوفى.. حكيم.

ولكني أكتب عنه، موقفا، تعزبه الأسوة.. وتعلو به القدوة، وتستضيء به أجيال، ويرشد بسيرته، في الأمر الصعب، الرجال.

وقد تناول الشيخ الجليل حياة ذي النون - محنته - وفاته - في الكتاب ذو النون المحدث المتبع للسنة - ذو النون العالم - الصوفى - صاحب الكرامات - السائح - المناجى - الواعظ - الحكيم.

اختلف الكتابون والمؤرخون في تاريخ مولده ولكنهم متفقون كما يقول الدكتور مصطفى حلمي، على التاريخ الذي كانت فيه وفاته، كلهم مجمع على أن وفاة ذي النون كانت في ذي القعدة سنة ٢٤٥هـ.. وهو ما قال به أيضا كتاب (طبقات الصوفية) لأبي عبدالرحمن السلمى.

أما مسقط رأسه فبعض المؤرخين يقول إنه من أصل نوبى وبعضهم يقول إنه ولد باخميم في صعيد مصر. إنه على كل حال كما يقول الدكتور مصطفى حلمي، مصرى المولد والنشأة، والعناصر التي تتألف منها حياته، ثقافته وولايته، والأحداث التي وقعت له، والأقوال التي أثرت عنه.. إنه استمد تلك العناصر من صميم الحياة المصرية.

يروى مؤلف الكتاب الدكتور عبدالحليم محمود أن صاحب الكواكب الدرية كان يقول عن ذي النون:

(العارف الناطق بالحقائق، الفائق للطرائق، ذو العبارات الوثيقة، والإشارات الدقيقة، والصفات الكاملة، والنفس العاملة العاملة، والههم الجليلة، والطريقة المرضية، والمحاسن الجزيلة

المتبعة، والأفعال والأقوال التي لاتخشى منها تبعة، زهت به مصر وديارها، وأشرق بنوره ليلها ونهارها).

أما تسميته بذى النون فراجعه إلى كراماته التي تروى عنه، وذلك أنه قال إن امرأة جاءتة وقالت إن ابنها أخذہ التمساح فلما رأى حرقتهأ على ولدها أتى النيل وقال: اللهم أظهر التمساح، فخرج إليه التمساح، فشق عن جوفه وأخرج إبنها حيا صحيحا. وإذا كان النون هو الحوت العظيم، وكان يونس عليه السلام قد سمي بذى النون لقصته المعروفة مع الحوت، كما يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾.

وكان لثوبان بن إبراهيم الصوفى المصرى قصة مع التمساح كقصة يونس مع الحوت، إذا كان ذلك كذلك كما يقول الدكتور مصطفى حلمى فقد تبين إذن لم سمي الصوفى المصرى بذى النون. ولعل كل ما هناك من فرق بين ثوبان بن إبراهيم المصرى وبين يونس النبى فى هذه التسمية، هو أن يونس النبى قد سمي بذى النون لأن النون الذى هو الحوت كان قد التقمه، على حين أن ثوبان بن إبراهيم المصرى قد سمي بذى النون لأن له كرامة مع التمساح الذى أشرنا إليه فى القصة.

كان ذو النون عالما متبحرا سافر فى المكان وفى كتب العلم ومصادره كان كما يقول الدكتور عبدالحليم محمود يرتاد المجاهيل فى العلوم، كما كان يرتاد المجاهيل من الأقاليم.

يقول عنه ابن القفطى فى كتابه: أخبار العلماء بأخبار الحكماء:

(ذو النون بن إبراهيم الاخمى المصرى، من طبقة جابر بن حيان فى صناعة الكيمياء، وتقلد علم الباطن، والاشراف على كثير من علوم الفلسفة.. وكان كثير الملازمة لسربا بلدة اخميم، فإنها بيت من بيوت الحكمة القديمة، وفيها التصاوير العجيبة.. ويقال إنه فتح عليه علم مافيه بطريق الولاية، وكانت له كرامات.

ويلتقى معه فى هذا الرأى، المسعودى وكان أول مصدر كتب عنه.

حين كتبت كتابي (شخصية مصر) قلت إن مصر ابتدعت الرهبانية في المسيحية ووضعت أسس التصوف في الإسلام، وكنت أعنى بهذا ذا النون الذي تقول المصادر الإسلامية ومن بينها الرسالة للقشيري، والطبقات للشعراني، والكواكب الدرية للمناوي، وحلية الأولياء لأبي نعيم الاصبهاني، واللمع للسراج الطوسي، وكشف الحجب للهجويري، وكذلك الرازي والترمذي... أنه وحيد دهره علما وعبادة وحالا، ومعرفة وأباد.. وأنه هو رأس هذه الفرقة- الصوفية فالكل قد أخذ عنه، وانتسب إليه، وقد كان المشايخ قبله. ولكنه أول من فسر اشارات الصوفية وتكلم في هذا الطريق.

ويقول الباحثون المحدثون ومن بينهم «ماسينيون» و«بركلمان» عن هذا المصري هو أحق رجال الصوفية- على الإطلاق- بأن يطلق عليه اسم واضح أسس التصوف ويعدونه واضح الحجر الاساسي في صرح التصوف التيزوفي الإسلامي.

وإذا كان الإنسان يُعرف في الموقف الصعب فقد عرف ذو النون في المحنة بما لا يدع مجالاً للشك في نفاسة معدنه.. معدن الأحرار من الرجال.

وشوا به إلى الخليفة المتوكل فحمل إليه في جماعة، مغلولاً مقيداً والناس من حوله يبكون وإذا بذى النون يعلن :

(هذا من مواهب الله ومن عطاياه، وكل فعالة عذب حسن طيب).

روى ابونعيم في الحلية عن إبراهيم بن يحيى اليزيدي قال : (لما حمل ذو النون إلى جمفر المتوكل أنزله في بعض الدور وأوصى به زرافة. وقال : إذا أنا رجعت غدا من ركوبي فأخرج إلى هذا الرجل.

فلما رجع من الند قال زرافة لذي النون: انظر بأن تستقبل أمير المؤمنين بالسلام.

فلما خرج إليه قال له: سلم على أمير المؤمنين

فقال ذو النون: ليس هكذا جاء الخبر، إنما جاء في الخبر أن الراكب يسلم على الراجل، فتبسم أمير المؤمنين وبدأه بالسلام، فلما نزل قال له:

- أنت زاهد أهل مصر؟

- قال : كذا يقولون.

قصة يقف عندها الإنسان طويلا في إكبار.

انسان يخائله شبح الموت على يد (سرور) السيف وتلوح له فرصة للسلام والتميق فيه...  
فرصة للترشي والتودد فيسقطها، مرفوع الرأس.

ويبدو أن الخليفة أدرك أنه امام طراز آخر من الرجال الشرفاء . ولم يعرف جلساء الخليفة هذه  
القصة فحين ضم المجلس ذو النون أخذ ينشد مخاطبا الله سبحانه، بشعره:

لله من قلبي المكان المصون      كل هم علي فيك يهون  
لله عزم بأن أكون قتيلا      فيك والصبر عنك ما لا يكون

فلما سمعه المتوكل، بكى وانتصر من أجله للصوفية على الفقهاء.  
وهكذا غدت المحنة، منحة... غدت نعمة من نعم الله وعطاياه كما نفذت إليها بصيرته.

حين سمعه المتوكل قال:

إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم.

\*\*\*

صفحة من حياة وضاء يشرف بها تاريخ الإنسان.